

على هانس الفلسفة

## طريقة الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى



قلنا في الكلمة الأخيرة : ما هي الطريقة التي تتبع لمعرفة الخير من الشر ، ولتحديد المثل الأعلى الأخلاق تحديدًا صالحًا مرضيًا من الجميع ؟ تسألنا كذلك بمد أن أثبتنا أن الأخلاق علم من العلوم<sup>(١)</sup> فيجب أن نسير في دراسته على الطرائق العلمية التي تصل بنا إلى الغرض في غير عوج ولا التواء

على أن الفصل في هذا ليس سهلاً ميسوراً ؛ فهي مسألة ولا أبا حسن لها ؛ مسألة اشتجر فيها الخلاف بين المفكرين والفلاسفة ، بل لعل الخلاف لا يزال قائماً فيها حتى اليوم . يرى البعض أخذ الأخلاق من الدين — فهو المين الدين ينفع النلة ولا يكذب قاصده — أو مما وراء الطبيعة أو من علم الاجتماع ؛ ويرى آخرون أنه من الخير أن نتعرف المبادئ الخلقية بأداة المعرفة المباشرة أي بالحاسة الخلقية التي تدرك الخير والشر من نفسها بدون نظر واستدلال : « استفتت قلبك وإن أفنك الناس وأفنوك » ؛ بينما يذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الواجب أن يطبق في الدراسات الأخلاقية الطريقة التجريبية الاستقرائية

## المنهج الاستقرائي

من الممكن كما يرى فريق من الباحثين أن نستنتج الأخلاق إما من الدين أو مما وراء الطبيعة أو من العلم الذي تنتمي إليه العلوم وهو علم الاجتماع

بالبحث نعرف أن الأخلاق ، أو المبادئ الخلقية العامة ، في كل الأديان التاريخية مستقاة من الإلهيات . ترى رجال الدين يقررون أولاً المسائل الخاصة بالله وصفاته وكراماته ، وبالحياة الأخرى ونعيمها وعقابها ، ثم يربطون بذلك نتائج خلقية مردها للكعب القدسة . يقررون أن الله لم يخلقنا عبثاً : « أحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » وأنه لا بد محاسب كلا على ما جنت يده : « لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وأنه لا بد من دار أخرى يكون فيها ذلك الحساب على ما أسلف المرء من خير (١) في الأعداد رقم : ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ من الرسالة

أو شر : « يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » . كما يقررون أن الجنة التي عرضها السموات والأرض « أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين النيظ ، والمعين عن الناس » وأن النار عقى الظالمين . ويستنتجون من هذه الحقائق الدينية وأمثالها أن المرء يجب أن يكون خيراً في كل أعماله ، وأن ينأى دأماً عن الشر وبذلك يصل للكمال الأخلاق . والخير والشر هنا ما جاءت به الكتب السماوية

استنتاج منطلق حسن من الناحية العملية ؛ إلا أنه ليس له القيمة التي تؤتي ثمرها الخلق إلا لدى المؤمنين بالله والدار الأخرى والثواب والمقاب وبهذا أو ذاك من الكتب المقدسة . فكيف العمل بمن لا يؤمن بالله أو رسول ، أو بمن يؤمن بالإنجيل دون التوراة ، أو بالعكس ، أو يهذين دون القرآن الكريم ؟ إذن ليس من الممكن بهذا الطريق أن نصل لتحديد قانون أخلاق يرضاه الناس جميعاً على ما بينهم من خلف في الأديان والمعتقدات « فضلاً عن هذا فالرابط الذي يكون بين هذه العقائد الدينية والأفكار والآراء والمبادئ الخلقية التي يربطونها بها يكون غالباً واهياً متداعياً ، فلا يكون الاستنتاج قوياً له قيمته وخطره<sup>(١)</sup> »

وها هو ذا العلامة « جوستاف بيلو Gustave Belot » يقول عن هذه المسألة (من الناحية المسيحية طبعاً) : « ليفتح من يشاء أي كتاب من كتب العقائد الدينية : وحينئذ ماذا يجد ؟ يجد أن الجانب الأكبر منه مشحون بالنظريات الخاصة بالله وقدرته وصفاته وأن الأخلاق تجمي في المركز الثانوي منه ، وأنه من الواجب أن نكره الطفل على أن يفهم ويقبل نظاماً من الاعتقادات الدينية دون أن نمي بالتساؤل عما إذا كان في مقدوره فهمها إن رجال الدين يجارون بالشكوى من ترزعج الأخلاق وتدهورها من يوم لآخر لأن الإيمان يتزلزل من آوة لأخرى . لو أن هذا كان صحيحاً فعلى من تقع التبعة والمسئولية ؟ أليس على هؤلاء الذين يعملون دأماً على تفهم الأطفال أن الأخلاق تتعلق دأماً بالدين والعقائد الدينية ؟ مع أنه ليس في مقدورهم حماية هذه الاعتقادات من حملات الشك ومعاركة التي تنشب من حين لآخر . إنه مما يتفق مع حقائق الأشياء كما يتفق مع الحقائق العملية أن يرد للأخلاق استقلالها<sup>(٢)</sup> »

(١) شالي : الفلسفة العلمية والفلسفة الأخلاقية

Challay: Philosophie scientifique et philosophie morale.

(٢) دراسة الأخلاق الأيمانية . Étude de morale positive.

أمثال الفارابي الذي يؤكد أن العقل يستطيع أن يحكم على العمل بأنه خير أو شر بنفسه بدون رجوع للوحي؛ لأن العقل عنده ليس إلا قبسا من النور الإلهي. وابن طفيل في رسالة «حي ابن يقظان» يجعل العقل قادراً على إدراك الحقائق كلها [ومنها طبيعياً الخير والشر] وعلى المروج في المعارف المُلى حتى يصل للحقيقة المطلقة، لمعرفة الله تعالى. وابن رشد فيلسوف الأندلس بل الإسلام يقرر أن العمل يكون خيراً أو شراً لدانته لمان يكشفها العقل، وليس ذلك لأن الله أمر أو نهى<sup>(١)</sup>

والخلاف في هذه المسألة يذكرنا بالخلاف بين الفلاسفة المحدثين فيما سمّوه «تظرية القيم». فإننا نزام مختلفين في أن القيم التي تقدر بها الأشياء من جمال وقبح وخير وشر وحق وباطل صفات عينية في الأشياء؛ كالألوان والطعوم والروائح، وبذلك يكون لها وجود مستقل عن العقل الذي وظيفته حينئذ إدراكها لا إثباتها؟ أم هي من صنع العقل «يصف بها بعض الناس الأشياء إذا كانت لها في نظرهم قيمة، ولهم فيها عرض أو غاية، ولا توجد إلا حيث توجد هذه الغاية». ذهبت طائفة إلى الرأي الأول، وأخرى إلى الرأي الثاني<sup>(٢)</sup>. ولكل وجهة هو مولها.

وأخيراً؛ إذا كان أخذ الأخلاق من الدين وربطها به منقوداً من بعض نواحيه كما رأينا، فهل من الممكن استنتاجها من معين آخر؟ ذلك ما حاوله كبار علماء ما وراء الطبيعة. وموعداً ببسط آرائهم الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى. محمد يوسف موسى

(١) ابن رشد ومذهبه لأرنت رنان. وغيره من المؤلفات العربية.  
(٢) كتاب فلسفة المحدثين والمعاصرين للأستاذ أ. وولف وترجمة الدكتور أبي الملائكة.

## ليلي المريضة في العراق

كتاب يفصل وقائع ليلي بين القاهرة وبنداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨، ويشرح جوانب كثيرة من أسرار المجتمع وسرائر القلوب في مصر والشام والعراق

يقع في ثلاثة أجزاء وتضمن الجزء ١٢ قرشاً  
ويطلب من المكتبات النهرية في البلاد العربية

ينقد هذان الأستاذان الباحثين في الأخلاق من المسيحيين، وقد أصابا في كثير مما نقدها. إن الديانة المسيحية أعلنت في مبدأ أمدتها الحرب الضروس على الفلاسفة الاغريقية معلنة أن الأخلاق ليس لها أن ترجع في معيها للعقل والنظر، ولا أن تُترك للفلاسفة الذين هم بشر يخطئون ويصيبون؛ وإنما الدين وحده هو الخرى بنشر التعاليم الصحيحة والأخلاق الفاضلة التي يوحى بها المعلم الحكيم؛ ومن ثم أصبحت الأخلاق لا تتركز على النظر المنطوق السليم، بل على الوحي المسيحي وحده، وصار أجل الفضائل في نظر المسيحية هو حب الله والإيمان به اللذان يوصلان إلى الخير الأسمى والسعادة الكاملة في الدار الأخرى بدل أن كان أرق الفضائل وأسمها هي الحكمة في رأي الفلاسفة اليونانية

أما الإسلام فلم يخس العقل حقه ولم يحجر عليه في التفكير. أمرنا أن نعمل عقولنا فيما خلقت له، وأن نفكر في خلق السموات والأرض: «وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. إن في ذلك لآيات لأولي الأبالب». كذلك لم يلجأ بالإسلام في تحديد قيم الأعمال الأخلاقية، وبينان خيرها من شرها إلى ما فيها من منافع وملاذ في العاجل أو في الآجل كما يتوهم وهم إذا قرأ وصف الجنة، والترغيب فيها، والنار والترهيب منها؛ بل هو يخاطب كلاً حسب ما يسهفه فهمه تشبهاً مع الفرائض الإنسانية. حتى إذا فعل المرء الخير رجاء الصواب صرنا عديدة أصبح له عادة، ويتشبهه قلبه ويفهم ما فيه من جمال وسمو ذاتين، فينتهي به الأمر إلى أن يفعله لدانته وحده. وهذا عين ما أراد الرسول إذ قال: «نعم المبد صهيبي لو لم يخف الله لم يصعه». أي أن المثل الخلقى الكامل هو؛ وصل إليه صهيبي وأمثاله من فعل الخير، وترك الشر لدانتهما لا رغباً ولا رهياً. على أننا نجد في تاريخ التفكير الإسلامي أن فريقاً كبيراً من المسلمين وهم المعتزلة يقررون أن الأعمال توصف بالحسن والقبح لدانها لا لأن الشرع أمر بها أو نهى عنها، فيكون الشرع بيننا لصفاتها لا مثبتاً لما ليس فيها. ويدللون لذلك باتفاق الناس على كثير من الفضائل والردائل قبل مجيء الشرائع السماوية، إلى غير ذلك من الأدلة التي ليس هذا موضعها<sup>(١)</sup> وليس هذا رأي المعتزلة وحدهم بل كان رأي غيرهم من مفكري المسلمين وحكامهم

(١) يرجع في هذا إلى كتاب اللواقف وغيره من كتب الكلام والفرق الإسلامية.